أهمّية الدراسات اللغويّة والأدبيّة المقارنَة بين العربيّة والفارسيّة ومجالاتها

الدكتور علي أصغر «قَهرماني مُقْبِل»*

الملخَّص

نعرف أنّ اللغة العربيّة تنتمي إلى عائلة اللغات الساميّة الحاميّة، كما أنّ الفارسيّة تندرج في اللغات الهنديّة الأوروبّيّة، فشتّان بين اللغتين من حيث الأصل والجذر. لكنّنا لا نجد لغتين مختلفتي العائلة في العالم أن تكونا متماسكتين بقدر ما نرى بين العربيّة والفارسيّة. فنلاحظ أنّ العلاقة الوثيقة بينهما تبدأ من قبل الإسلام وتستمرّ إلى عصرنا، إذ أنتجتْ هذه الصلة التاريخيّة بينهما قابليّات متنوّعة في مجال الدراسات المقارنَة بين اللغتين والأدبين قديماً وحديثاً، لأنّ كلاً من اللغتين أو الأدبين لا يخلو من تأثير في الجانب الثاني أو تأثُّر به في طول التاريخ أي قبل الإسلام حتّى أيّامنا هذه. فعلى سبيل المثال لا يتيسّر لنا تحقيق بعض النصوص العربيّة القديمة وفهمها بدون مساعدة اللغة الفارسيّة مثل آثار الثعالبي، كما لا نتمكّن من تحقيق كثير من النصوص الفارسيّة تحقيقاً دقيقاً إلاّ بالاستعانة باللغة العربيّة. والدراسات المقارنة بينهما تُلقي الضوء على طريق تعرُّف كلٍّ من أصحاب اللغة على أصحاب اللغة الأخرى، كما تؤدّي إلى تعزيز وتنشئة كلتا اللغتين العربيّة والفارسيّة.

نحن في هذا المجال نسعى إلى التركيز على طرح مجالات الدراسة المقارنة بين العربيّة والفارسيّة – وهو مجال رحْب جدّاً – فيما يتعلّق بعلم اللغة من جهة، والآداب وتاريخها من جهة أخرى.

كلمات مفتاحيّة: الأدب المقارن، الأدب العربي، الأدب الفارسي، اللغة العربيّة، اللغة الفارسيّة.

المقدّمة

إنّ الدراسات الأدبيّة المقارَنة حصيلة رؤية الإنسان الجديدة إلى الحياة والإنسان، وبناءً على ذلك نشأ الأدب المقارَن خلال القرنين الماضيين، وأُسّست مبادئ هذا العلم، فأصبح علماً مستقلاً بين العلوم الحديثة ومنهجاً من مناهج النقد الجديد. هذا لا يعني أنّ التراث الأدبي القديم يخلو كليّاً من الدراسات المقارنة، لأنّنا نجد شذرات من المقارنة عند العلماء القدامى في الثقافة الفارسيّة والعربيّة، ولكن لا نعتبرها من صميم الدراسات المقارنة لأنّها تفتقد عادةً المنهج الدقيق للمقارنة.

قال رائد الأدب المقارن في البلاد العربيّة محمّد غنيمي هلال في الهدف الّذي يرمي إليه الأدب المقارن والوظيفة الّتي يقوم بها: "الأدب المقارن إذن يرسم سير الآداب في علاقاتها بعضها ببعض، ويشرح خطّة ذلك السير، ويساعد على إذكاء الحيويّة بينها، ويهدي إلى تفاهم الشعوب وتقاربها في تراثها الفكري. ثمّ هو – بعد كلّ هذا – يساعد على خروج الآداب القوميّة من عزلتها، كي ينظر لها بوصفها أجزاء من بناء عام هو ذلك التراث الأدبي العالمي مجتمعاً. وبهذا المعنى لا يكون الأدب المقارن مكمّلاً لتاريخ الأدب ولا أساساً جديداً أقوَم لدراسات النقد فحسب، بل هو – مع كلّ ذلك – عامل هامّ في دراسة المجتمعات وتفهُّمها، ودفعها إلى التعاون لخير الإنسانيّة جمعاء".[1]

نعم يحاول الأدب المقارن إلى التخلّص من التعصّبات القوميّة، ويهدف إلى خدمة الآداب لخير الإنسانيّة كافّةً، ويسعى إلى توصيف محايد من التأثيرات والتأثّرات بين الآداب؛ لا للتفاخر والنزاع، بل للتفاهم والتعارف بين الشعوب وللتعرّف على النفس لكن في مرآة الآخر.

كذلك ورد في تعريف الأدب المقارن: "الأدب المقارن هو الفنّ المنهجي الّذي يبحث عن علاقات التماثل والقرابة والتأثير وتقريب الأدب من الأشكال المعرفيّة والتعبيريّة الأخرى، أو تقريب الأعمال والنصوص الأدبيّة من بعضها، بعيدة كانت في الزمن أو في الفضاء[2]، شرط أن تنتسب إلى لغات متعدّدة أو ثقافات مختلفة، وإن كانت جزءاً من تراث واحد، وذلك من أجل وصفها وفهمها وتذوُّقها بشكل أفضل".[3]

الدراسات المقارنة بين العربيّة والفارسيّة ومجالاتها

كان الفرس والعرب في حالة التعامل اللغوي والأدبي طيلة حياتهم الأدبي، أي يبدأ قبل ظهور الإسلام ويمتدّ إلى عصرنا هذا، بسبب الجوار بينهما. فلذلك تُعدّ الدراسات المقارنة بين الآثار الفارسيّة والعربيّة من المجالات الخصبة. وإن التزمنا بالمدرسة الفرنسيّة الّتي تهتمّ بالصلة التاريخيّة كشرط أساسي للمقارنة؛ تَوفَّر هذا الشرط في أغلب المواضيع

---

1 **الأدب المقارن**، ص 18-19.

2 يبدو أنّ الترجمة الصحيحة هي «في المكان».

3 بيير برونيل وزميلاه، **ما الأدب المقارن**، ص 172. لقد ورد المضمون نفسه عند مقاربي فرنسوي آخر: "الأدب المقارن هو الفن المنهجي الذي يبحث في علاقات التشابه، والتقارب، والتأثير، وتقريب الأدب من مجالات التعبير والمعرفة الأخرى، أو أيضاً، الوقائع والنصوص الأدبية فيما بينها، المتباعدة في الزمان والمكان أو المتقاربة، شرط أن تعود إلى لغات أو ثقافات مختلفة، تشكّل جزءاً من تراث واحد من أجل وصفها بصورة أفضل، وفهمها، وتذوّقها". (دانيل هنري باجو، **الأدب العام والمقارَن**، ص 18)

الّتي تتعلّق بالأدب الفارسي والعربي القديم. وإن درسنا الأدب الحديث بين الفارسيّة والعربيّة فقد نجد نوعاً من الانفصال بين الأدبين في هذه الحقبة التاريخيّة، ولكنه جدير بالمقارنة أيضاً حسب أصول المدرسة الأميركيّة، لأنّ الظروف الأدبيّة الناتجة عن الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في البلدان العربيّة كثيراً ما كانت تُشبه ظروف إيران.

الدراسات اللغويّة المقارنة ومجالاتها

قام بعض الدارسين بمقارنة زوايا من الدراسات اللغويّة بين العربيّة والفارسيّة، ونشرت **مجلّةُ الدراسات الأدبيّة** الّتي كانت يصدرها قسم اللغة الفارسيّة بالجامعة اللبنانيّة مقالات متعدّدة تتعلّق بهذا المجال. منها:

- همايي، جلال الدين، «في التبادل اللغوي بين العربيّة والفارسيّة»، السنة الأولى، العددان 2-3، صيف وخريف 1959، صفحات 9-14.
- مينوي، مجتبى، «إحدى فارسيّات أبي نواس»، السنة الثانية، العدد 1، ربيع 1960، صفحات 49-68.
- محمّدي ملايري، محمّد، «من الظواهر الطريفة في التبادل اللغوي بين العربيّة والفارسيّة»، السنة الثانية، العدد 2، خريف 1960، صفحات 221-244.
- البستاني، فؤاد أفرام، «بين العربيّة والفارسيّة (محاضرة)»، السنة الثالثية، العدد 1، ربيع 1961، صفحات 15-30.
- ألتونجي، محمّد، «التسرّب اللغوي بين العربيّة والفارسيّة»، السنة 7، العددان 1-2، ربيع وصيف 1965، صفحات 129-136.

مع كلّ هذه الجهود المبذولة يمكن أن تعالَج موضوعات أخرى تتعلّق بمقارنة اللغة الفارسيّة بالعربيّة. منها:

من الأمور الجديرة بالاهتمام المفردات العربيّة الّتي دخلت الفارسيّة، إذ عاشت وتطوّرت مستقلّة عن أصلها. ومن هنا ظهرت ظاهرة يمكن أن نسمّيها مفردات عربيّة الأصل فارسيّة المعنى، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

مجتمع (المجمَّع)، جامعه (المجتمع)، فارغ التحصيل (المتخرّج)، محصِّل (التلميذ)، مَدْرَك (الشهادة)، تَماشا (التفرّج)، انقلاب (الثورة)، اعتصاب (الإضراب)، استعفاء (الاستقالة)، تَسْليتْ (التعزّي)، معروف (المشهور)، عذاب وِجدان (وخْز الضمير)، ...

نلاحظ أنّ هذه الألفاظ تستخدَم في اللغة الفارسيّة، ولكن بمعنىً آخر غير ما نجد في اللغة العربيّة،[4] لأنّها دخلت الفارسيّة منذ قرون، فتعامل معها الفرس معاملة الألفاظ الفارسيّة، كما أدخلوها في بنية اللغة الفارسيّة الّتي هي من

[4] أتذكّر أنّ أستاذي في جامعة العلاّمة طباطبائي، الدكتور نادر نظام طهراني قال مرّةً: إنّ بديع الزمان فروزانفر (وهو من أكبر أساتذة الأدب الفارسي في جامعة طهران وكان متضلّعاً في الأدب العربي القديم، توفّي 1970م) توجّه إليّ في جلسة مناقشة الرسالة وقال: "أجزْنا لك فاشْرعْ". وكان يقصد: "سَمحنا لك فابْدأْ".

اللغات التركيبية مع السوابق (prefix) واللواحق (suffix)، مثل «غم» (الغمّ= الحزن)، فصنعوا «غَمْگين» (= المحزون) و«بي‌غم» (غير محزون).

هنالك أمر آخر وهو الفرق في نسبة شيوع الألفاظ العربيّة الدخيلة في الفارسيّة بالمقارنة إلى استعمالها في أصل اللغة. مثلاً كلمة «عشق» مأخوذة من العربيّة، ولكنّها وما اشتُقَّ منها لم تُستعمل في الأدب العربي بمقدار ما استعملها الأدباء والشعراء الفرس في آثارهم الغنائيّة والصوفيّة، وهي كثيرة الاستعمال جدّاً في الأدب الفارسي.

موضوع آخر يندرج في الدراسات اللغويّة المقارنة هو دراسة تحوُّل الحروف الخاصّة بالعربيّة في الفارسيّة، وعكس ذلك؛ أي كيفيّة تحوُّل الحروف الخاصّة بالفارسيّة في عمليّة التعريب. مثلاً دخلت «مريض» إلى الفارسيّة، ولكن تُلفَظ «marīz» أي تحوَّلت الضاد إلى الزاي في الفارسيّة (وكذلك في التركيّة) مع الاحتفاظ بالإملاء العربي. وكذلك يمكن أن يُطرَح سؤال وهو لماذا تحوّلت «گ» (g) إلى «ج» قديماً وإلى «غ» في العصر الحديث؟

كذلك نجد خصائص لغويّة خاصّة في اللهجات العربيّة الدارجة في إيران بسبب تأثّرها الشديد بالفارسيّة، كما نرى في محافظة خوزستان، وكَنْگان وهي منطقة في محافظة بوشِهْر.

وأخيراً نذكر كلام أحد الباحثين في هذا المجال بقوله: "الدراسات الألسنيّة في القرن المعاصر تُلقي الضوء على مساحات واسعة من هذه التفاعلات بين مختلف اللغات الحيّة العالميّة. لكنّنا قلّما نجد لغتَين منفصلتَين تماماً من حيث أصولهما ومبادئ الاشتقاق والتصريف فيهما، قُدِّر لهما أن تتلاحما وتتكافآ بمقدار ما نراه ونلمسه بين العربيّة والفارسيّة".[5]

الدراسات الأدبيّة المقارنة ومجالاتها

إنّ مجال هذا النوع من الدراسات أرحب وأوسع جدّاً يشمل التأثير والتأثّر في الأشكال الأدبيّة والصور البلاغيّة والصناعات البديعيّة والمضامين.

كان الأدب العربي والفارسي في علميّة الأخذ والعطاء المستمرّة منذ القرون الماضية بسبب الجوار وبسبب العلاقات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة بين الفرس والعرب. أمّا بالنسبة إلى العلاقات الموجودة بينهما قبل الإسلام فلا ننسى دور «الحيرة» الّتي كانت حلقة الوصل بين الشعبين بحيث ظهر شاعر كعدي بن زيد العبادي التميمي (36 ق. هـ/ 587م) الّذي كان يتقن اللغتين العربيّة والفارسيّة ويتردّد بين بلاطَي فارس والحيرة. ونرى أنّ الحيرة تستحقّ دراسات متعمّقة لاكتشاف زوايا خفيّة من علاقات الفرس والعرب قبل الإسلام.

كذلك كانت قبائل عربيّة تعيش على جوار بلاد فارس مثل ربيعة وتميم (وعدي بن زيد منها) وإياد بحيث يرى باحث كعبد الله الطيّب المجذوب أنّ هذه القبائل تعلّمت الوزن الكمّي (quantitative) عن الشعر الفارسي الّذي

[5] محمّد خاقاني، **لغة الإعلام**، ص 7-8.

بدوره كان متأثّراً بالشعر اليوناني.[6] هذه فرضيّة لم تثبت حتّى الآن، لأنّنا لا ندري عن الشعر الفارسي قبل الإسلام إلاّ قليلاً جدّاً، لأنّ كثيراً من الآثار الفارسيّة امّحت بعد الغزو الإسلامي. كذلك غيّر الفرس خطّهم إلى الخطّ العربي في القرن الثاني بعد صمت طويل عن الإنتاج بالفارسيّة، وهذا أدّى إلى انفصالهم عن الثقافة الفارسيّة الّتي كانت بالخطّ البهْلوي فلم يقدروا على الحفاظ عليها.

كذلك لا ننسى دور الفرس في مساندة الحضارة الإسلاميّة؛ إمّا بآثارهم العربيّة أو بإنتاجاتهم الفارسيّة. وكم من كاتب أو شاعر فارسي كان يجيد اللغتين العربيّة والفارسيّة وينتج بهما نظماً ونثراً. فلعب هؤلاء الأدباء دور الوسيط بين العربيّة والفارسيّة، بحيث تأثّروا بالأدب والثقافة العربيّين وأثّروا فيهما. فعلى سبيل المثال أخذ الشعر الفارسي القصيدةَ من الأدب العربي كنوع من أنواع الشعر فأصبحت القصيدة من أنواع الشعر الفارسي منذ القديم إلى الآن. كما عرّف الشعراءُ الفرس فنَّ الدوبيت إلى الأدب العربي، إذ لا شكّ في أنّ أوّل من نظموا على الدوبيت بالعربيّة كانوا من الفرس الّذين يتقنون الفارسيّة والعربيّة، فأصبح فنّ الدوبيت من فنون الأدب العربي أيضاً.

فلا ننسى دور البصرة[7] ثمّ بغداد في هذا التعامل الثقافي والأدبي بين العربيّة والفارسيّة بعد الإسلام، ونعرف أنّ البصرة كانت تسود عليها اللغتان العربيّة والفارسيّة، فانعكس هذا الأمر في آثار الجاحظ وأشعار أبي نواس.

ومن يُنكر تأثير ابن المقفَّع في الأدب العربي مع أنّه لم يكتب إلاّ بالعربيّة وهو كان يحمل الثقافة الفارسيّة وحاول نقل الآثار الفارسيّة الشهيرة إلى العربيّة عن طريق الترجمة، خوفاً من ضياعها، لأنّ الفارسيّة البهْلويّة كانت على وشك الاضمحلال والفارسيّة الدريّة لم تكن تنشأ بعد آنذاك. ومن هنا تعرّف العرب على كثير من الحكمة الفارسيّة كما تعرّفوا على نَمط جديد من الأدب مثل **كليلة ودمنة** الّذي كان هنديّ الأصل.

وبغضّ النظر عن الحركة الشعوبيّة الّتي أنتجت آثاراً بالعربيّة تفاخراً بمفاخرها الفارسيّة، ظهرت طبقة أخرى مخلصة للعربيّة لأنّها كانت ترى العربيّة لغة القرآن ولغة الإسلام، وشاركت في اعتلائها بجهودها الجبّارة وإنتاجاتها المتنوعّة في مجالات شتّى. فبرز من هذه الفئة علماء كبار كعبد القاهر الجرجاني والسكّاكي في البلاغة، والجوهري والزمخشري والفيروزآبادي في وضع المعاجم، والأخفش الأوسط والخطيب التبريزي في العروض والقافية، والثعالبي الّذي كان موسوعيّاً. وآثار هؤلاء العلماء مليئة بمظاهر التأثير والتأثّر بين الثقافة العربيّة والفارسيّة عموماً، وبين الأدب العربي والفارسي خصوصاً.

ومن يقدر على تحقيق كتاب مهمّ مثل **يتيمة الدهر** للثعالبي أو **دمية القصر وعصرة أهل العصر** للباخرزي دون الاستعانة باللغة الفارسيّة والأدب الفارسي؟

وأمّا بالنسبة إلى الأدب الفارسي فلا نبالغ إن قلنا بأن لا يتيسّر تحقيق الآثار الفارسيّة دون الاستعانة باللغة

---

[6] **المرشد**، ج2، ص 751-752.

[7] هنالك رأي بأنّ «البصرة» لفظ فارسي إذ قال ياقوت الحموي: "قال حمزة بن الحسن الأصبهاني: سمعت موبذ بن اسوهشت يقول: البصرة تعريب بَسْراه، لأنّها كانت ذات طرق كثيرة انشعبت منها إلى أماكن مختلفة". (**معجم البلدان**، ج1، ص 430)

العربيّة والأدب العربي، لأنّ أمّهات الأدب الفارسي امتزجت باللغة العربيّة والأدب العربي امتزاجاً تامّاً وهي مشحونة بالمفردات والتراكيب العربيّة إضافةً إلى الآيات القرآنيّة والأمثال والأشعار العربيّة الّتي ورودها متداول جدّاً في الآثار الفارسيّة نحو **تاريخ البيهقي** و**كليلة ودمنة** ترجمة أبي المعالي نصر الله المنشي و**مرزبانْنامه** لسعد الدين الوراويني و**تاريخ جهانْگُشا** للجويني وغيرها.

ولذلك يوصي نظامي العروضي (550 هـ/1155م) الكاتبَ الفارسي بمطالعة الآثار العربيّة نظماً ونثراً مثل: ترسّلات الصاحب بن عبّاد والصابي، ومؤلَّفات قدامة بن جعفر ومقامات بديع الزمان الهمذاني ومقامات الحريري وكذلك دواوين العرب مثل ديوان المتنبّي والأبيوردي، إلى جانب القرآن وسيرة الرسول وآثار الصحابة وأمثال العرب.[8]

وأخيراً نستنتج القول بأنّ مجال الدراسات المقارَنة اللغويّة والأدبيّة بين العربيّة والفارسيّة واسع ومتنوّع جدّاً يتطلّب جُهد الباحثين الإيرانيّين والباحثين العرب، للتقارب بين الشعبين وللتعارف الأكثر بينهما. فلا بدّ من أن نذعن بأنّ كلا الشعبين في الزمن الراهن مقصّرون في التوجّه إلى المجالات المتنوعّة في الدراسات المقارنة بين العربيّة والفارسيّة، خصوصاً الباحثين العرب عادةً الّذين ليسوا على صلة مباشرة بالأدب الفارسي في العصر الحديث، وينظرون إلى الأدب الفارسي من منظار البحوث الأوروبّية، كما قال عميد الأدب العربي سنة 1944م. معترفاً بهذه الحقيقة: "وقد كان علمنا بشؤون الأدب الإيرانيّ ضيّقاً محدود الوسائل، لا نلتمسه عند أهلها وإنّما نلتمسه عند الإنكليز والفرنسيّين والألمان، الّذين سبقونا مع الأسف بهذا الأدب وتذوّقه".[9]

* * *

المصادر والمراجع

1. باجو، دانيل هنري، **الأدب العام والمقارَن**؛ ترجمة غسّان السيّد، لا طبعة، دمشق: منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، 1997.
2. برونيل، بيير، بيشوا، كلود، روسو، أندريه ميشل، **ما الأدب المقارن**؛ ترجمة غسّان السيّد، الطبعة الأولى، دمشق: منشورات دار علاء الدين، 1996.
3. خاقاني، محمّد، **لغة الإعلام** : في الصحافة العربيّة والفارسيّة، الطبعة الأولى، بيروت: دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997/1418.
4. الشواربي، إبراهيم أمين، **حافظ الشيرازي شاعر الغناء والغزل في إيران**، لا طبعة، القاهرة: مطبعة المعارف ومكتبتها، 1944.
5. الطيّب، عبد الله، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، الطبعة الثانية، بيروت: دار الفكر، 1971، 3 أجزاء في مجلّدين.

[8] **چَهارْ مقاله**، ص 22.

[9] طه حسين، «المقدّمة»، في: إبراهيم أمين الشواربي، **حافظ الشيرازي شاعر الغناء والغزل في إيران**، ص ل.

6. نظامي عروضي، أحمد بن عمر، **چهار مقاله**؛ تصحيح محمّد بن عبد الوهّاب قزويني وبا تصحيح مجدّد محمّد معين، تهران: انتشارات جامي، 1375 هـ. ش.

7. هلال، محمّد غنيمي، **الأدب المقارن**، لا طبعة، بيروت: دار العودة، 1999.

8. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، **معجم البلدان**، الطبعة الثانية، بيروت: دار صادر، 1995، 7 أجزاء.